

تمثّلات المقاومة التونسية في الكتابات الكولونيالية

عبد العزيز الثعالبي مثالا.

Representations of Tunisian resistance in colonial writings:
Abdel Aziz Al-Thaalabi as an example.

د. نجاة الطاهر قرفال *

جامعة قابس

guerfeell@hotmail.fr

تاريخ الإرسال: 2025-10-26	تاريخ التقييم: 2025-11-11	تاريخ القبول: 2025-12-10
---------------------------	---------------------------	--------------------------

الملخص:

يهدف البحث في فكرة المقاومة عند عبد العزيز الثعالبي إلى التعرف على آلياتها المتعددة: المحاضرات، والخطب، والكتابة في المجلات، وتأليف الكتب، وتأسيس المجلة والجمعية والحزب، وجمعه في مشروعه النضالي بين المسلكين السياسي الديني، وتأسيس فكره التحرري على عدم الفصل بين الشأن الداخلي والخارجي، ودعوته إلى تحرير المغرب الثلاثة وبلدان العالم الإسلامي، وحمل شعار قضايا الإنسان العادلة. من خلال تمثّلات الغير لهذا كله، مثلما كشفت عنه كتابات كولونيالية ذات إفادات في معرفة رؤيته ومشروعه واقعا، واستشرافا. استبان أنّ هذه المدونة مغمورة رغم أهميتها في تعقّب الفكر المقاوم والإحاطة بالنسيج الفكري لشخصية الثعالبي المولّد لروح المقاومة ومكمن الأطروحة المقاومة لكلّ وجوه الاستبداد داخلا وخارجا.

كلمات مفاتيح: تونس- مقاومة-- عبد العزيز الثعالبي- تمثّلات- كولونيالية.

Abstract:

This research aims to examine the idea of resistance according to Abdul Aziz Al-Tha'alibi, to identify its various mechanisms: lectures, sermons, the association, and the party, combined the political and religious paths in his struggle project, founded his liberationist thought on not separating internal and external affairs, and called for the liberation of the three Maghreb countries and the countries of the Islamic world, through others' representations of all this, as revealed in colonial writings that are useful in understanding his vision and project in reality and in anticipation. It turned out that this blog was obscure despite its importance in tracking the resistance thought and encompassing the intellectual fabric of Al-Tha'alibi's personality.

Keywords: Tunisia - Resistance - Abdelaziz Thaalbi Representations - Coloniality.

*المؤلف المراسل:

مقدمة

تتجيز فكرة المقاومة عند عبد العزيز الثعالبي (1876-1944) بين نظري في دلالاتها وبحث مصادر التفكير فيها وتفعيل في فضائها المحليّة والإقليميّة والدوليّة. وتتجلى في جملة من البّيات ذات تعدّد وتنوّع: المحاضرات والخطب والكتابة في المجلّات وتأليف الكتب وتأسيس المجلّات والجمعيّة والحزب والانتماء إلى المنظّمات، وعقد الاجتماعات، والمشاركة في المؤتمرات، والرحلة عبر العالم العربيّ الإسلاميّ مشرقاً ومغرباً والسفر إلى بلدان أوروبا وآسيا. ثمّ إنّّه جمع في مشروعه النضاليّ بين المسلك السياسيّ والمسلك الدينيّ، وأسّس فكره التحرّريّ على عدم الفصل بين الشّأن الداخليّ والخارجيّ، فنادى بتحرير المغرب

الثلاثة وبلدان العالم الإسلامي، وحمل شعار قضايا الإنسان العادلة. وتعود أهمية البحث في فكرة المقاومة هذه من خلال تمثّلات الغير لها، مثلما كشفت عنها كتابات كولونيالية، إلى تجديد زاوية النظر الذي يشفّ عن وجوه أخرى للحقيقة. ولا يخفى على ذي نظر ما في التمثّل الغيريّ خلال الزمن الاستعماريّ من إفادات في معرفة رؤيته ومشروعه على وجه الواقع والاستشراف خاصّة.

ما يسجّله الناظر في الكتابات الكولونيالية حول فكرة المقاومة التونسية للاحتلال الفرنسي، هو تعقّب دقيق لتحركات المقاومين، يعيننا منهم هنا الثعالبي، وأنشطهم ونشرياتهم وعلاقاتهم بالداخل والخارج، خاصّة برموز الإصلاح في المشرق. وقد أفصحت عناوين كتب ومقالات صدرت في دوريات، فرنسيّة في الغالب، عن تمثّلات غيريّة للمقاومة التونسية فكرةً ومشروعاً وممارسة، مثلما تجلّت في شخصيّة الثعالبي. وكانت تلك التمثّلات متنوّعة ومتضاربة، أحياناً. والمدوّنة في ذلك معتبرة. منها مجموعة كتب، مثل: (العلماء التونسيون (1873-1915)، في رسالة تونس، وشارل أجرون (Serres, Victor) وسير، فكتور (Ageron, Charles-....)، في تاريخ الجزائر المعاصرة، وشارل أندري جوليان (Charles-Robert (2008-1923)، في تونس ما بعد الحرب، ومنها جملة دوريات، Monchicourt, Charles (1937-1873)، وتونس الصغيرة (L'Ordre)، والنظام (L'Humanité) مثل: الإنسانية (La Petite Tunisie)، والإرسالية التونسية (la Revue Tunisienne)، والمجلة التونسية (La Dépêche Tunisienne)، ومنتصف النهار (Paris-midi) وباريس منتصف النهار (Tunis-France)، وتونس-فرنسا يوميّ مستقلّ للمعلومة (Midicolonial) الكولونيالية (Tunisie-France : quotidien indépendant d'information).

الخطّة المعتمدة تقوم على ثلاثة أقسام، إضافة إلى مقدّمة وخاتمة: أوّلاً: فكرة المقاومة المستوحاة من مفهوم التحرّر، وثانياً: مشروع المقاومة المتجاوز لحدود الوطن الضيقة، وثالثاً: ممارسة المقاومة باعتماد جملة من الآليات، من المهمّ الإشارة هنا إلى أنّ هذه الأقسام الثلاثة سينظر فيها من خلال تمثّل الآخر لها.

إشكاليّة البحث: كيف تمثّل الآخر الأوروبيّ، صاحب مشروع الاحتلال تنظيراً وإجراء، فكرة المقاومة في تونس من خلال إحدى الشخصيّات المقاومة: عبد العزيز الثعالبي؟

أولاً: المقاومة باعتبارها فكرةً

وهي فكرة مستوحاة من مفهوم التحرّر الذي تملّك الثعالبي مبادئه منذ تعليمه الأوّل بجامع الزيتونة وقد كان الزمن عصرئذ زمن احتلال غاشم. فالمقاومة باعتبار جانها الفكريّ هي تصوّر معرفيّ ناجم عن علم التوحيد، وهي إلى ذلك شرط مستخلص من واقع مرير يفرضه المحتلّ على الأهالي، واقع تغييره حتيّ.

(1) فكرة المقاومة من ثمار التوحيد: أدرك الثعالبي البون الشاسع بين فكرة التحرّر المشبعة في مسائل التوحيد المؤسّسة على إقرار عبوديّة واحدة هي العبوديّة للمنشئ سبحانه ودحض ما سواها من أحوال الاستسلام والاستكانة والاستعباد التي يفرضها المحتلّ على أصحاب الأرض الأصليين وسلمهم كلّ مظاهر الحرّيّة ووسائل التحرّر. إنّ التعليم الزيتونيّ الذي تلقّاه الثعالبي ألهمه بما في الإسلام من قوى كامنة تقضي بتحرّر الإنسان دونما تحديد لماهيّة هذا الإنسان، وذلك من خلال مفاهيم عرض لها بالنظر والتحليل في كتاباته لا سيّما كتابيه اللذين كان لهما الأثر الكبير في نشر فكرة المقاومة، مقاومة كلّ مصدر من مصادر الاستعباد سواء في ذلك الجهل والتخلّف والوهم والاحتلال الذي هو نتاج حتيّ لكلّ سوس ينخر الشعوب: روح التحرّر في القرآن¹ وتونس الشهيدة² يقول شارل أندري جوليان (Charles-André, Julien) (1891-1991)، وقد تنبّه إلى السرّ الكامن في فكرة المقاومة عند الثعالبي: "لقد اعتمد مثل الثعالبي بتونس على قوى الإسلام دون سواها لإحياء بلاده والسير بها نحو الاستقلال...".³ فالمعين الذي منه يستقي فكره المقاوم هو الإسلام والغاية هي التحرّر من ربقة الاحتلال.

(2) فكرة المقاومة متجذّرة في القرآن الكريم: ولئن تعدّدت المصادر التي استقى منها الثعالبي فكرة المقاومة بمفهومها الواسع الذي لا يتّجه مباشرة إلى محتلّ أرضه ومغتصب حقوقه، وإنّما يخترق مكامن الضعف التي تنخر الإنسان عقلاً وروحاً وجسداً، لئن تعدّدت مصادر اشتقاق فكرة المقومة عنده فإنّ أوّل مصدر يسرّح فيه الأنظار ويستبصر فيه دلالات التحرّر هو النصّ قرآناً وسنّة باعتبار حجّيّتها تفسيراً واستدلالاً. فكرة المقاومة بهذه الدلالة المشتقة من القرآن الكريم شاء لها الثعالبي بأن تتبلور في كتابه روح التحرّر في القرآن. يقول روبير لوزون (Louzon, Robert) (1882-1976):⁴ "منذ عشرين عاماً تقريبا التونسيّ الثعالبيّ الذي حكم عليه بالإعدام "للتجديف" ضدّ مرابط، كتب "روح التحرّر في القرآن. في هذا المصنّف البارع، رفض الثعالبي، مستنّداً على نصوص القرآن نفسه،

وظيفة القرآن الشائنة... مجتمعات دينية إسلامية، طالب بتحزّر المرأة ودعا إلى الإخاء بين المسلمين واليهود والمسيحيين⁵. نحتفظ بنقطتين اثنتين على الأقلّ تمثّلان، باعتقادنا، أهمّ مقوّمات فكرة المقاومة عند عبد العزيز الثعالبي: أولاها ما ارتبط بتفسير القرآن الكريم وما توسّله المفسّرون من أدوات الشرح والتأويل التي قاد الكثير منها إلى فهم يغلب عليها الطابع الذاتي الخادم لمآرب شخصية. فقد بحث بعض مفسّري القرآن الكريم في القرآن الكريم عمّا يستجيب لأرائهم وتوجّهاتهم المذهبية التي أسفرت عن إحداث شرح في الفكر الإسلامي الذي بدلا من بناء الوحدة والقوّة آل إلى التصدّع والتفرقة. وهذا ما أسماه المستعرب لوزون بـ "وظيفة القرآن الشائنة"، بناء على ما استخلصه من فكرة المقاومة عند الثعالبي مثلما تجلّت في مصنّفه التحزّر في القرآن. وأمّا النقطة الثانية فمدارها على تحزّر المرأة. فلما كانت قضية المرأة مجالا بحثيا متعدّد المسالك متنوعا من جهة زوايا النظر، فإنّ الثعالبي اعتبر النظر فيها، أي قضية المرأة، محلّا للتساؤل فوظف مصطلحا مركّبا: "مسألة تحرير المرأة"⁶. وقد اشتغل معارضو الثعالبي من المتحزّرين في هذا الموضوع، أي موضوع المرأة، أيما اشتغال وعلّقوا عليه آمالا عراضا فقد اعتبروه مدخلا رئيسا لنشر أفكارهم حول منزلة المرأة في الإسلام، وتوجيه انتقادات شديدة للثعالبي الذي أعاد طرح مسائل دقيقة تتعلّق بالحجاب، دون ضبط ماهيّته، وتعدّد الزوجات، دون معرفة ضوابطه، وما إلى ذلك من المسائل التي يجد فيها المتزمتون منزعا ومرتعا.

(3) فكرة المقاومة اقتضاء لأوضاع واقعة: السمة الغالبة للأحوال التي ترين على المجتمع التونسيّ يومها كانت ذات وجهين على الأقلّ: وجه موسوم بالانشغال بالبدع والانسياق وراء الخرافات وادّعاءات الكرامات وإتيان الخوارق والعجائب. ولم يكن أمام الثعالبي من حلّ سوى إعلان مقاومة ذلك الوضع بمراجعة مسائل جوهرية في عقيدة المسلم أولاها: التمسك بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة دون الاعتراض بتأويلات المؤلّين، وثانيها: الدّعوة إلى تخليص العقيدة الإسلامية ممّا تلبّس بها من أفكار مخالفة لجوهر التوحيد الخالص، من ذلك التقرب إلى من يدعون الصلاح والتبرك بالأضرحة والخضوع لفكرة الأولياء الصالحين. هذا الوجه الأوّل أمّا الثاني فمداره على العلاقة بين الشرق والغرب، وهي علاقة تأسست عليها فكرة المقاومة عند عبد العزيز الثعالبي. وهي تتصلّ بالروابط الكائنة والممكنة بين الشرق والغرب. فأمة الإسلام عصرئذ كانت مجرد مجتمعات دينية منغلقة منطوية على ذاتها لا تكاد ترى في الأخر سوى أجنبيّ غريب يناسبه العداء ويشكّل خطرا على وجوده. ومنها تنشأ رغبة الثعالبي في تصحيح الرؤية وتوجيه

الممارسة. فالانطواء على الذات ليس حلاً واعتبار الآخر عدوًا ليس طريقاً لتثبيت الوجود. ها هنا تنبثق فكرة المقاومة المبنية على الإخاء بين أصحاب الأديان التوحيدية الثلاثة. وهو نوع من التشارك في عقيدة التوحيد ومن ثمّ في المصير الإنساني. وليس هذا التوجّه المروج من لدن لوزون رجل السياسة والحرب والدين سوى طريقة لكسب القوى الفاعلة من التونسيّين، وكان الثعالي يومها على رأسها، ومن ثمّ تهدئة فكرة المقاومة وتلطيف غلوها وتقليص مجالها وإضعاف نتائجها المحتملة. ويذهب الخرفي إلى تأثر الثعالي بالأفكار المروّجة يومها والتي كان للمستعرب لوزون دور في نشرها بتونس⁷: "لم تنشأ هذه الآراء عفوا بل عمل على إيجادها مبشّر فرنسيّ اسمه روبير لوزون، جاء بفكرة ترمي إلى التوفيق بين الأديان، بحجّة أنّ الدين المسيحيّ دين إلهي، وكذلك الدين الإسلاميّ، وإذن فلا داعي للخلاف بينهما، ومن واجب الشعوب الإسلامية أن تتصافى وتتعاون مع الشعوب المسيحية"⁸.

ثانيا: المقاومة باعتبارها مشروعا

وهو مشروع متجاوز لحدود الوطن الضيقة يرمي إلى احتضان الإقليمي والقاريّ والإنسانيّ. ولكنّ الإخبار بأوضاع البلاد التونسية كان المنطلق الذي مثّل مدخلا لتحريك ضمائر التونسيّين، ومن بعدها تدويل مشروعه المقاوم.

(1) الأرضيّة البانية لمشروع المقاومة: كان لا بدّ أن يكون التعويل في صياغة مشروع المقاومة على التعريف بالذات وتصوير الأوضاع وتقديم الدلائل. إذ لا ينشأ مشروع من فراغ ولا يكون مقنعا ما لم يستند إلى حجج قويّة يكون حصادها فكرا حراّ ينادي به التونسيّون ومن مائلهم في معظلة الاحتلال ومن لم يكن منتصرا لكل أشكال الاستعباد من حاملي مشعل التحزّر الإنسانيّ.

كتب الثعالي في باريس عام 1919 كتابه تونس بالشهيدة، الكتاب الذي أحدث ضجة وأثار الضمائر والأحقاد. وقد ضمّنه عددا هائلا من الحجج الدامغة المبنية على معلومات ضافية وإحصاءات دقيقة ذات مصادر موثوقة، في مختلف مجالات الحياة في الإيالة التونسية يومها: التعليم والصحة والأملاك والقضاء والإدارة... إلخ، بما لا يدع مجالا للإنكار أو المضيّ قدما في الإيهام بالمهمّة التنويريّة التي ما انفكت حكومة الاحتلال وأنصارها من الداخل أو الخارج يرفعون شعارها.

تصدّى بعض المستعربين لهذا الكتاب الحدث تونس الشهيدة، هذا المنجز المترع بالدوافع المقتضية، عقلا ومنطقا، لقيام مشاريع مقاومة في كلّ بلد سامه المحتلّ مذلة وهوانا، وقبض عليه بالحديد والنار، لا بل كلّ شعب حمل في باطنه بذور ضعفه وهزيمته وفنائه، ردّ منشكور، شارل (Monchicourt, Charles) (1873-1937)، على الكتاب بنصّ حماسيّ مشبع بالاستفهام الإنكاريّ، نقتبس منه ما يلي: "من سيقول الأنقاض مكدّسة بفعل الإجراء الملتوي العاجز للشرع؟ من سيقول الأيتام منهوبون من قبل الأوصياء...؟ من سيقول تدنّي دراسات العربيّة في جامعة الجامع الأعظم؟ من سيقول؟ ... والفوضى والابتزازات والرشوة (مرادف تونسيّ للبقشيش التركيّ) تسود في كلّ مكان لا تبلغه المراقبة الفرنسيّة... "هيّا! لنكن منصفين، تونس الشهيدة الحقيقيّة تنتظر الكتابة"⁹.

انتبه منشكور، انطلاقا ممّا عرضه الثعالبي من حقائق دالّة على المظالم التي يزرع تحتها التونسيّون والبؤس الذي يعيشونه، وكشفه عن حقيقة الاحتلال الغاصب المتوحّش المخالف لكلّ القوانين والأعراف الإنسانيّة، انتبه إلى وجوب مراقبة حكومة الاحتلال لتحركات الفاعلين التونسيّين لا سيّما في مجال التعليم حيث تبني العقول وتنسج الخطط. فليس أؤكد للمحتلّ من السيطرة على التعليم ووضع اليد على المجال الإداريّ الذي يقتضي ازدواجا في اللغة مادامت خطة إحلال الفرنسيّة محلّ العربيّة لم تلق نجاحا: "كان الاهتمام السياسيّ بهذه الوظيفة الجديدة المفيدة حوالي 1920 مفارقا. فقد كانت تبني وترتكز على ازدواجيّة اللغة العربيّة-الفرنسيّة التي تنظّم الحياة السياسيّة والإداريّة والثقافيّة التونسيّة في الحقبة المعاصرة"¹⁰.

إنّ الأرضيّة البانية لمشروع المقاومة تكشّفت عن جملة من المآلات الخطيرة المحتملة الحدوث ما لم تتمّ مقاومة المحتلّ ودحره. إنّها مآلات تهدّد المجتمع التونسيّ في مستويات عدّة لعلّ أخطرها المؤسّسات تعليميا وسيادة.

(2) تحريك ضمائير التونسيّين: ليس من اليسير زرع فكرة من هذا النوع في مجتمع انقسم أهله على أنفسهم بين مناد بالتحرّر من مخلفات الشرق واحتضان مبتدعات الغرب، وآخرافض لكلّ مستجدّ وداع إلى استعادة الماضي بتفصيلاته، وربّما طرف ثالث لا همّ له سوى العيش وإن شاكل عيشه عيش البهائم والأنعام. وكان على الثعالبي أن يتحرّك لإنفاذ مشروعه في المقاومة على جبهات ثلاث على الأقلّ.

ولمّا كان كلّ مشروع، نظريًا، يتأسّس على جملة أفكار أخذ بعضها برقاب بعض، فإنّ تفعليه يقتضي التعاطي مع تلك الأفكار تصنيفًا وترتيبًا وإجراء بحسب متطلّبات الحال ومعاييرها. فالتعامل مع مجتمع أيّا كان لا يكون دونما معرفة عميقة به والمداخل الممكنة إليه. والمجتمع في مشروع المقاومة الذي عمل الثعالي على تحقيقه ليس واحدًا بل اثنان: مجتمع حاكم غالب مستبدّ، وآخر محكوم مغلوب مستعبد. ولم يكن كلّ من المجتمعين ليقرّ بصفاته تلك، فلا الفرنسي يرى نفسه مستبدًا ولا التونسيّ يكتنه حقيقة الاستعباد الذي هو عليه. تتخذ المقاومة والحال تلك مسلكين اثنين يؤدّيان إلى إعادة ترتيب المنازل من خلال بثّ الوعي بحقيقة الحال المنسيّة عند كلّ طرف، بوعي أو بغير وعي.

ما ينبغي الوصول إليه هو كيف تنبّه الآخر الكولونياليّ إلى إدراكات الثعاليّ تلك. فهذا ميشال برنصيار (Branciard, Michel) (1926-2003) يقول بعد أن عرّف بالثعالي من جهة منزلته العلميّة. فهو عنده "دكتور في القانون، (من) العلماء"¹¹: "نشر الثعالي... الذي كان يعارض العلماء المحافظين، منذ سنوات عديدة، في الفترة نفسها، والذي كان يهدد البناء إسلاميًّا صمنا لنفايات، كتابا: تونس الشهيد"¹².

ما نحفظه من هذا الشاهد يبيّن طبيعة العلاقة بين الثعاليين مرة من علماء الزيتونة الذين ناصبوا العداء بسبب أفكارها التحرّرية التي أخذت تتسرب في ضمائر التونسيين السحداً بلوغ مرحلة من الوعي تمثّل تفضيلاً لاقتدا رعلت تأسيس الجريدة والمجلة والجمعية والحزب. ولئن كانا الثعاليين قد حصداوا تكتيكية منثلة من أعلام تونس الزيتونية بنشر كتابهم روح التحرّر في القرآن¹³، مثلما تقدّم ببيانها، فإنّه قد اشتدّت معاداة أكثر فأكثر بنشره تونس الشهيد، ولا عجب في ذلك. لأننا لكتابنا الأول طرح فكرة التحرّر العقدي من خلال المعالجة مستويًا تفهم النصّ القرآنيّ المنزّل بل سائر عربيّين، فحازت ميمنه. ألم يقل: "يظلّ هذا المؤلّف جديرًا بالاهتمام لأنّ الثعالي يعدّ في حالات كثيرة في طليعة المثقّفين والوطنيين الرّواد وأحد المعبرين عنهم"¹⁴.

بينما تجاوز الكتاب الثاني هذا الطرح من خلال تعرية الواقع المرير الذي ساهم في تشكيله العلماء أنفسهم بتكسّهم المعفيّ وجمودهم في مناهج التعليم¹⁵ وإيثارهم الدعة وحياة الترف وتكوير العمامة والتنازع بالألقاب.

لم تسلم، إذن، الأفكار التحرّرية التي نادى بها الزيتونيّ عبد العزيز الثعالي، من نقد لاذع موجّه من ثلّة من المستعربين الفرنسيّين. إذ كان لا بدّ من الحطّ من هذه الأفكار المحرّكة لضمائر التونسيّين والمساهمة في إشعال فتيل الثورة التونسيّة ضدّ المحتلّ

الغاشم. لذلك تهجّم بعض الموالين للمحتلّ المشرّعين لوجوده، على طبيعة التعليم المقدّم في مؤسّسات التعليم الأصليّة الباني للعقول المتمرّدة على المحتلّ. واعتبر متخلّفاً غير آخذ بأسباب التقدّم. لقد ماثل المستعرب شارل أندري جوليّان (Charles-André Julien) (1891-1991) بين التعليم الإسلاميّ فيعصره، ونظيره المسيحيّ خلال القرن الثالث عشر ميلادياً، من جهة العجز عن مواجهة حياة العصر. جاء في كتابه إفريقيا الشماليّة تسير: القوميات الإسلاميّة والسيادة الفرنسيّة¹⁶، "والطلبة المتخرجون من كليّتي القرويين بفاس والزيتونة بتونس الكبيرتين لهم تكوين يشبه ما كانت تمنحه كليّات أوروبا الغربيّة في القرن الثالث عشر"¹⁷. ثمّ يردّ مصدر تلقّي طلبة الزيتونة المعرفيّ والافتداء العلميّ إلى مصر فالتعليم الزيتونيّ، بحسب جوليّان، متأثّر بالمنحى العلميّ في مصر: "وقد أخذت أوساط الجامعة الزيتونة عن المصريّين علوماً لتفسير وسلوكهم في إعلاء كلمة الله"¹⁸. ولذلك دلالاته وأبعاده: فبنية العقل العربيّ الإسلاميّ المنتج ستكون واحدة وردود الفعل ضدّ المشاريع الاستعماريّة ستكون متماثلة. إنّ فكرة المقاومة إذا كانت مؤسّسة معرفيّة لا يقف دونها حاجز ولا تنفع معها أساليب التهديد المختلفة سجنًا وتعذيبًا ونفيًا وتغريبًا. وقد شهد الثعالبي في حياته من هذه الأساليب الكثير فلم تزد فكرة المقاومة عنده سوى قوّة وترسخ وعطاء، ولم تزد التونسيّين سوى التفاف حوله لولا نفي سلطات فرنسا له إلى الشرق.

(3) تدويل مشروع المقاومة: ارتحل الثعالبي راغباً أو مرغماً فارتحلت معه فكرة المقاومة إلى بلاد كثيرة في العالم شرقاً وغرباً وارتشف المسلمون وغير المسلمين من فكر الثعالبي التحرّري الداعي إلى إعادة بناء الذات وفق مقتضى العصور ردّ القوى الاستعماريّة بواسطة القيم التي تنشرها والشعارات التي تنادي بها. فتكون المطالب من جنس العروض التمدينيّة التي يلوّح بها المستعمرون ومن يوالهم في داخل البلاد أو خارجها. يقول أجرون (Ageron)، وهو من الذين تعقّبوا خطوات الثعالبي وأفكاره: "يوم 30 جويلية بعد أربعة أيام من مغادرة الشيخ الثعالبي تونس سكت بلا صدقائه ثمّ هب إلى سوريا" ولما كنت لم أعد أقدر على العيش في الجزائر حيث الحياة لا تطابق النسبة إلّيّ فأتيتاً نسحب إلى البلد أكثر تساهلاً"¹⁹. من الواضح من خلال مقالة الثعالبي هذه أنّه لقي عننا بلده تونس وفي الجزائر أيضاً، في نشر فكره المقاوم. فقد مثّل خطراً على مشروع الاستعمار ولعلّه كان كذلك على شيوخ عصره ممّن تغافلوا عن وظيفة الجهاد ضدّ مغتصبي الأوطان.

وكان على رموز الاحتلال الحذر من الثعالي ومن حذوا حذوه من التونسيين أو الفرنسيين. لذلك "لم يسمح السيد لوسيان سانت (Lucien Saint) بأن ينخدع، وسرعان ما نجح في تهدئة مثيري الشغب الذين أرسلهم، ليس إلى الجنوب، بل إلى سوريا أو إلى أي مكان آخر، الثعالي على سبيل المثال، مؤلف تونس الشهيدة، وآخرين منهم لوزون (Louzon)، وفابر (Fabre)، وكولاتر (Colrat) وغيرهم ممن لا نستحضر أسماءهم"²⁰.

يبدو هذا طريفاً فإنّ تلقى ثلّة من الفرنسيين أنفسهم المصير ذاته في الإبعاد من تونس يعدّ أمراً محيراً. فهل كان الإبعاد للتخلص منهم أم لتعقّب خطوات الثعالي في المشرق؟ ما من شكّ في أنّ شخصية لوزون تظلّ مدار استفهام. إذ كان مناونا لمشاريع الاحتلال. وكان يسعى، في أنشطته التبشيرية والحزبية إلى نشر أفكاره الشيوعية غير المقبولة من لدن حكومة الاحتلال الفرنسي بتونس: "وتصاعد التصادم بين الإقامة العامة الفرنسية في تونس، ولوزون، رفعت ضده قضية عدلية انتهت بقرار طرده من تونس في شهر أوت 1922 واتّجه إلى الشرق"²¹.

إنّ إبعاد الثعالي وكوكبة من "المشاغبين" الفرنسيين إلى الشرق مثّل مسلكاً موطّأً لتدويل فكرة المقاومة التي عمل على نشرها في كتاباته وخطبه، في إقامته وترحاله. ثمّة إذن ترويج للأفكار التحريرية بين ثلاث قارّات على الأقلّ إفريقيا بحكم المنشأ والانتساب، وآسيا بسبب النفي والإبعاد، وأوروبا بفضل لوزون ورفاقه الذين ربطتهم بالثعالي علاقات فكرية منادية بالعدل والحرية ونبذ التبعية والاستبداد.

ثالثاً: المقاومة باعتبارها ممارسة

إنّ النظر في المقاومة باعتبارها ممارسة يدعو إلى البحث في الآليات الموظّفة فيها، والملاحظ أنّ آليات ثلاث كانت هي المعتمدة من لدن الثعالي في ترويج أفكاره التحريرية وأطروحته في المقاومة. هذا ما تقدّمه الكتابات الكولونيالية عموماً، وهو لا يخالف واقع الحال بصفة عامّة. وفي ذلك دليل على أنّ شخصية الثعالي كانت محلّ اهتمام كوكبة غير هيئنة العدد من المثقفين الفرنسيين، وأنّه كان محطّ أنظار النخبة الفرنسية الموالية للمحتلّ، أو لنقل المستخدمة من أصحاب القرار الاستعماريّ، دون أن نغفل عن اهتمام ثلّة أخرى من الفرنسيين المناصرين لفكرة حقّ الشعوب في تقرير المصير التي نادى بها ولسون²².

(1) آليّة الصحافة: ما يعنينا من هذه الآليّة الموظّفة من جهة الثعالبي لحيازة موقع قدم ضمن الأصوات الحرة الصادحة بهموم الشعوب والمناداة بتحزّرها وإعادة ما سلب من حقوقها وثرواتها. ولم تكن قوى الاحتلال وحدها لتحوّل بترسانتها الصحفيّة الهائلة دون مشروعه ذاك، وإنّما عاضدهم، بقصد أو بغير قصد، شيوخ زيتونيّون مغرضون يناوئون كلّ صوت مجدّد يُعمل العقل بدل الوجدان.

يثير قرين تحت عنوان محاكمة الثعالبي مسألة الشقاق بين الثعالبي وعلماء من الزيتونة نعتوا بنعوت سلبية شتّى، لما كان يصدر منه من أفكار تجديدية مستلهمة في شقّ كبير منها من المصريّ محمّد عبده، قوبلت في الصحافة التونسية بالسخرية واستحسنها الصحافة الفرنسيّة: "بعد أن اعترض العلماء المحافظون على آراء عبده السلفيّة لم يتأخّروا في الهجوم... على أحد معتنقي الآراء الحديثة..."²³.

وقد شهدت الساحة الإعلاميّة بتونس عصرئذ معركة صحفيّة لا بين صحافة المحتلّ والصحافة المحليّة وإنّما داخل الصحافة التونسيّة نفسها التي عبّرت عن تصدّع في المواقف واحتقان في العلاقات بين منتصر للقديم ممثلاً في الطريقيّة، مثلاً، ومنتقد لها. يقول قرين: "وقد نشرت في التسعينات بعض مقالات في الصحيفة الإصلاحيّة الحاضرة جاء فيها أنّ جوّ "التهرّج" السائد في بعض الزوايا ينافي روح الإسلام... كما أنّ قضيتي محمّد شاكري في 1902 وعبد العزيز الثعالبي في 1904 اللذين انتقدا بصراحة الطريقيّة دلّتا على أنّ العلماء كادوا يجمعون على مساندة الطرق"²⁴.

ولا عجب في أن تنبري الصحافة الفرنسيّة في الدفاع عن كلّ من اعترض على المقلّدين ورفع لواء المستنيرين²⁵. ذلك أنّها صحافة مستقطّبة تحفر عميقاً في الشروخ الفكريّة الإسلاميّة، ويخدمها تفرّق كلمة التونسيّين، على وجه الخصوص. يقول قرين: "وقد دافعت الصحف الفرنسيّة بصورة عامّة عن الثعالبي لكونه مستنيراً بينما رمت الصحف العربيّة بالزندقة. وقد مالت جريدة الحاضرة أيضاً إلى هذا الموقف"²⁶. ومن الصحف الفرنسيّة اليومية التي كانت تصدر بتونس الإرساليّة التونسيّة²⁷: "جاء في لا ديباش تونيزيان المؤرّخة في 17 جويلية 1904 (أ: أن) من غير المعقول في القرن العشرين وفي بلاد تحمها الجمهوريّة الفرنسيّة المستنيرة، محاكمة أيّ شخص بتهمة النيل من الدين وذلك لمجرّد التصريح برأيه في جلسة خاصّة، (ب) وأنّه إذا ما انجرّ عن هذه الآراء اختلال في الأمن العامّ فإنّ المسؤوليّة لا تقع على

الثعالبي بل على حاجب المجلس الشرعيّ "الذي كان يطوف بالأحياء منادياً: قوموا واقتلوا من شتم القرآن!"²⁸.

وكانت عصا العقاب والانتقام ترتفع في وجه الثعالبي بمصادرة صحيفته سبيل الإرشاد كلما عبر عن موقف لا يلقى استحساناً من مثله من شيوخه. والمثال في ذلك فتواه التي أصدرها في شأن الشكولاطة. يقول قرين: "وعندم اتجرأ الثعالبي على انتقاد فتوى²⁹ أصدرها أحمد بن الخوجة تحلل أكلال شكلاطة طلب شيخ الإسلام إيقاف سبيل الرشاد وطالب بأن يخول له حق مراقبة جميع المقالات الصحفية التي لها مساس بالدين"³⁰. غير أن محاربته في منبرها التعبير الصحفي لم تكن سوى قودلتاً جيّفة فكرة المقاومة عنده وبها في كل مكان يحلف فيه. وحين "كان عبد العزيز الثعالبي قد هاجر من البلاد على إثر توقّف سبيل الرشاد في 1897 وطاف بعدة أقطار إسلامية قضد سنتين على الأقل بمصر حيث تعرّض لعدايات باغية وأفعان يوعده"³¹. ومن أتباعهم محمد رشيد رضا، خاصة، صاحب مجلة المنار التي سيّمتها الشيوخ والمحافظة عليها ويحشرون في زمرتها صاحبة المدرسة الخلدونية ومنيمثلها يومها: "وبعد عودته لتونس في 1901 أخذ في مهاجمة الطرق الصوفية علانية من أدياب تفسير القرآن تفسيراً عقلاً: "وبدأ الناس يلتقطون من كلامه سقطات في مسائل الخلاف بين الصحابة والأولياء والكرامات، ويشيعونها على وجعها أو على غير وجهها حتّى بلغت أسما عكبار الشيوخ أن قاموا على التطوّر فأثارتهم ثورة أدمجت الخلدونية والمنار والثعالبي"³².

والعلة في هذا الجمع بين الثعالبي والخلدونية والمنار هو شعار التجديد الذي يرفعونه. فالخلدونية متهمة بافتكاك التعليم من جامعات الزيتونة لاهتمامها بالعلوم العصرية، والمنار لكونها صحيفاً تفسّر القرآن على غير ما أترعنا لأقدمين، وأما الثعالبي فلا تعوزها التهمة التي قادتها إلى المحاكمة³³. وساهم ذلك، بلا ريب، في بناء روابط فكرية معمن وقفوا معه في نازلته³⁴، حتّى إنّه كان قد ضمّن كتابه روح التحرّر في القرآن ما يستهدف بناء علاقات بناة مع الآخر. يقول قرين: "ويذكر الثعالبي في المقدمة أنّ للكتاب هدفين هما الحثّ على التقارب بين المسلمين وغير المسلمين وتبرير العمل التمدينيّ لفرنسا الأوروبية بصفة عامة في البلاد الإسلامية"³⁵.

وكانت له روابط أخرى فكرية وروحية بين المشرق الإسلامي، إذ كانت مصر تعجّ بأرباب الصحافة العربية من مسلمين ومسيحيين قدموا من سوريا ولبنان خاصة.

(2) آلية التأسيس: إنّ الانخراط في هذا النوع من الفعل أمانة على النضج الفكريّ الذي كلّما تحوّل إلى منجز عمليّ دلّ على تطوّر في وسائل المقاومة وإرادة جمع شتات

العناصر الفاعلة للانخراط في مسلك رسمي عليّ يكسبه وصحبه حقّ التعبير والتحرّك والاجتماع وبعض الأعمال الخادمة لمشروعه التحرّريّ.

تنوّعت أشكال التأسيس عند الثعالبي وقد صحبته الفكرة منذ وقت مبكّر من شبابه. ومنها الدوريّات مجلّات وجرائد، ومها الجمعية والحزب والانتماء إلى المنظّمات، وعقد الاجتماعات، والمشاركة في المؤتمرات. فقد "أسّس 1895 جريدة سبيل الرشاد، وكانت إسلاميّة المنهج"³⁶. لا تخفي جوليّات طبيعة هذه الصحيفة. فهي بتعبيرها "إسلاميّة المنهج"، تعبير غاية في الاختزال اللفظي والاكتناز الدلاليّ. وستكون هذه الصحيفة، إلى حين مصادرتها في 1897، منبره الإعلاميّ الذي يوصل أفكاره إلى شريحة معتبرة من المهتمّين بالشأن الإسلاميّ داخل تونس وخارجها.

ولم تكن جهوده التأسيسيّة لتغفل عن الشأن التونسيّ الذي ظلّ يسكنه ويقضّ مضجعه. "عقد الثعالبي، بعد نهاية الحرب العالميّة الأولى، اجتماعا مع النخبة التونسيّة واتّفقوا على تقديم عريضة باسم التونسيّين إلى المؤتمرين بفرساي يطالبون فيها بتطبيق مبادئ الرئيس ولسون الأربعة عشر"³⁷.

كان لذلك أثره الكبير في التأسيس لما سيعرف في الكتابات الكولونياليّة بالقوميّة التونسيّة التي أفادت من التدايعات العالميّة خلال الحقبة التاريخيّة الممتدّة ما بين بدايات الحرب العالميّة الأولى ونهاياتها. وقد أثر أتباع هذه القوميّة توحيد الصفّ المقاوم بالفكر خاصّة. فال"القوميّة التونسيّة هي العرض المضيء لهذا الاختمار السياسيّ المنتشر في العالم بواسطة الحرب والولسونيّة"³⁸، في شأن جميع دول ما وراء البحار الخاضعين أو المحمّيين"³⁹. "النظريّات القوميّة للثعالبي والقلّاتي"⁴⁰ والصافي⁴¹ وفرحات⁴²، وهي تحت مسمّيات متنوّعة، ليس لها سوى هدف تحرير تونس من روابط العبوديّة"⁴³.

ومن أمثلة ما انخرط فيه الثعالبي من أعمال تأسيسيّة ما عرف بحركة تونس الفتاة بالعاصمة⁴⁴، حيث "صارت زعامة هذه الحركة بيد علي باش حامبة الأكثر نضاليّة وعبد العزيز الثعالبي. وكان الثعالبي الذي أصدر في 1909 نشرة عربيّة لجريدة التونسيّ، كثيرا ما عدّ رمزا للتأثير الإسلاميّ بين مجموعة الشباب التونسيّ خُرّجي المدارس الفرنسيّة. وكان وجوده سببا رئيسيّّا في انفضاض العلماء من حول الحركة إذ حاولوا منذ أمد بعيد اتّهامه بسبّ الجلالة"⁴⁵.

ولم تفت حكومة فرنسا الكولونيالية وأتباعها أن تغض الطرف عن التحركات التي يفعلها الشباب التونسي رفقة الثعالي وحتى من بعده سواء في أحوال فيه أو رحلته أو حتى بعد وفاته. ولكن هذه التتبعات ظلت تعتبر الثعالي عنصرا خطيرا لفكره ومهارته الخطابية ومنزلته بين الناس لا سيما الفئة الشبابية. يذهب بعضهم إلى أنّ "كل هذه الأحزاب الشابة هي موضوع تحليل طويل محايد للمؤلف⁴⁶ الذي حاول إظهار الخطر الذي يمثلونه بالنسبة إلى تونس. لا ينبغي أن ندس عيارا لتونس البارز البشير صفر الذي لا يمكن أن يهبطها بحب الفرنكوفونية: "السياسة الفرنسية في هذا البلد عادلة و متسامحة في الآن نفسه، وعطوفة وراعية"⁴⁷. من الواضح انتصار رموز الاحتلال لمن يناصروهم من التونسيين على حساب من يحمل شعار تحرر البلاد وتحريرها من القيد الاستعماري أمثال عبد العزيز الثعالي الذي سعى إلى ربط علاقات دبلوماسية من شأنها أن تمثل معبرا نحو التأسيس الفعلي للانخراط في أنشطة منظمات وجمعيات وأحزاب وربما عرض قضيتهم عن طريقها. لم يقطع عبد العزيز الثعالي بما له من فكر تشاركي، مع الأخر بل كان همزة وصل بين الشرق والغرب وعلامة تفاعل مع الآخر الغربي بواسطة إقامة علاقات منها القانونية "وقد أهدى كتاب الروح الحرة في القرآن إلى رجل قانون فرنسي السيد فال (Vallé)"⁴⁸، ومنها الدبلوماسية، فقد "استطاع بدمائه طبعه الارتباط بصداقات عديدة حميمة وخاصة مع زعيم الاشتراكيين مارسيل كاشان⁴⁹ الذي مكّنه من عرض القضية على مجلس النواب"⁵⁰. ذلك أنّه قد كان على وعي بما للتواصل الثقافي من أهميّة في الإفادة من الآخر وتوظيفه لنيل بعض الحقوق أو على الأقل كسب مواقف مؤازرة له في مساعيه نحو تمكين البلاد من الاستقلال والانطلاق في مسيرة التقدم.

يهاجم لوزون فرنسا في نوع من الدفاع عن حرّيات دينية: "السياسة الظلامية التي تنتهجها فرنسا "الجمهورية" إزاء الأهالي ومستعمراتها... المقال المكتوب بالعربية الذي حرّك غضب المقيم العام. عمّ يحتوي؟ هل كان هجوما ضدّ "فرنسا"؟ أو ضدّ سياسة السيد بوانكاري (Poincaré) أو سياسة السيد القديس؟ أبدا: كان المقال ضدّ التعصّب الدينيّ عند بعض أتباع الإسلام"⁵¹. من الواضح أنّه ينزّه فرنسا عن ارتكاب المظالم وتوجيه التهم إلى الحكومة الفرنسية وقتها. ورغم أنّ هذا يندرج ضمن الصراع السلطوي على كراسي الحكم فإنّه يظلّ ذا قيمة في خدمة القضية التونسية والتمكين لفكرة المقاومة التي حمل رايتها الثعالي الذي كان على صلة متينة مع لوزون هذا في تونس وفي الشرق أيضا حين تمّ إبعادهما مع ثلاثة أخرى من محدثي "الشغب". يتساءل لوزون في شيء من الإنكار: "هل تريد فرنسا "الجمهورية" أن تكون متراسا للظلامية؟ للدين الإسلامي، فعلا، مثل أغلب الأديان،

انزياحات خاصّة عن مبادئه الأولى. أخفى مفسّرو القرآن تحت تفاسيرهم المعنى الأصيل في القرآن... كوّنوا تعصّباً فرقيّاً... في هذا الدين غير اللاهوتيّ وجدوا وسيلة لإدراج تراتبيّة لاهوتيّة كاملة...⁵². يعبرّ قرين عن حقائق قد لا يكون لوزون جرباً كفاية لقولها، تتعلّق بما بلغه الإسلام من ذروة مجد حضاريّ حين كان علماؤه يكتنّهون جوهر المعاني القرآنيّة. يعلّق قرين على التوجّه التقليديّ المعادي لمقتضيات العصر: "تفسير القرآن بشكل متحرّر وعقلانيّ كان قد ساهم في ازدهار الحضارة الإسلاميّة أيام مجدها إلّا أنّ "التفسير المخطئ والمضلل والحاقد والمضّر الذي يعود بصورة أساسيّة إلى الطريقيّة قد قطع هذا المدّ الرائع ورجع بالشعوب الإسلاميّة للوراء"⁵³.

ولا تخفى على ذي علم المكانة التي كانت للثعالبي في المشرق الإسلاميّ. فقد انتدبه العراق لتمثيله في مؤتمر الخلافة المنعقد بالقاهرة عام 1926، وفي مؤتمر القدس⁵⁴ كان دوره رئيسيّاً في طرحه والإقناع به وتنظيمه وتدبير مسائله وجمع الفرقاء حوله، إلى حدّ انعقاده. فهذا المستعرب الفرنسيّ المعاصر هنري لورانس (Laurens, Henry) (1954-...)، صاحب الموسوعة العلميّة: مسألة فلسطين (*La question de Palestine*) ذات المجلّدات الخمسة، يعتبر الثعالبي أحد محرّكي مؤتمر القدس المنعقد عام 1931. يقول في ذلك: "وكانت فكرة عقد مؤتمر إسلاميّ عامّ واردة منذ وقت طويل... ويلعب المنفيّ التونسيّ الثعالبي دوراً محرّكاً"⁵⁵.

(3) آليّة التصنيف والنشر: ليس المهمّ هنا ذكر عناوين تصانيف لعبد العزيز الثعالبي، فهذا معلوم وتصفّحه متاح والكتابات حوله كثيرة، ولكنّ المراد البحث فيه هنا هو كيف عبّرت كتابات الثعالبي عن فكرة المقاومة تعبيرا كان له أثره العمليّ في تحريك الساحة الفكرية وتنشيط الردود والانتقادات الكاشفة عن النوايا الحقيقيّة للمستعمرين، ومن ثمّ إيماناً بإمكان تفعيل بعض العلاقات السياسيّة داخل تونس وخارجها لإعادة بناء صورة تونس المقاومة والإقرار بحقّها في الحرّيّة وكسب أصوات موالية ومنظّمات داعمة.

من الكتابات الكولونياليّة في هذا الشأن ثلاثة كُتّيبات موسومة تباعاً بتونس من دون الفرنسيّين، والقوميّة التونسيّة، والدعاية الاشتراكيّة في شمال إفريقيا⁵⁶، لروباررينو (Robert Raynaud)، سعى من خلالها إلى إعادة القيمة الحقيقيّة للخرافات التي نشرتها بعض النفوس التخريبيّة حول سياستنا الاستعماريّة وطغياننا إزاء الأهالي. تونس من دون الفرنسيّين هي الجواب على تونس الشهيدة الكتاب المليء بعدم الدقّة والكذب،

العائد إلى قلم عبد العزيز الثعالبي⁵⁷. هذا الرأي المنكر لصحة ما تمّ عرضه في تونس الشهيدة ينبئ عن عدائية مقبّية وخوف عميق من تداعيات محتوى هذا الكتاب على الساحة الفكرية والسياسية في تونس وفرنسا على حدّ سواء. لذلك "ستفسّر الترجمة الذاتية لمؤلف تونس من دون الفرنسيين"⁵⁸، أسباب المطالب المدعومة من لدن هذا المسلم غير الراضي والذي احتجّ عليه روبرينو بشكل مثير للإعجاب: "ردّا على الثعالبي ولائحة الاتهامات، المتحمّس زورا، نحن لا ندّعي معارضة الأسوّل بالأفضل، وإن كنّا أدركنا بعض الأخطاء المرتكبة"⁵⁹. ثمّة إقرار بارتكاب حكومة الاحتلال الفرنسي بتونس أخطاء ما كان عليها أن تقع فيها. ولما كانت هذه الأخطاء ثابتة من جهة الإقرار بها كان لا بدّ على فرنسا من معالجتها. ذلك أنّ الحراك النضاليّ في تونس، مثلا، سرى ليهبه خارجها وتمكّن من إقناع بعض الفرنسيين من أصحاب الفكر الحرّ. إنّ "هذه المشكلة التي واجهت فرنسا في إفريقيا وما تزال تواجهها، هي من بين أصعب المشكلات التي على السياسة أن تعالجها". تسعى فرنسا جاهدة إلى حلّها من خلال الاستلهاً من فكرة أنّ مصير شمال إفريقيا يرتبط بمصير فرنسا بشكل لا ينفصم⁶⁰. رغم هذا التوجّه لدولة الاحتلال الفرنسي في ربط مصير مستعمراتها بمصيرها لم تكن لتركن إلى ما يظهر من بعض التونسيين من تهمين لجهودها. ذلك أنّ عيونها المبتوثة هنا وهناك تتعقّب حركات الثعالبي وأتباعه وسكّنته. من هؤلاء شارل منشكور المراقب المدنيّ بتونس لما يزيد عن عقود ثلاثة.

وقد ساعدته وظيفته تلك في محاولة فهم العصبية المناضلة ضدّ الاستقرار الفرنسيّ بتونس ومن ثمّ تمثّل صورتهم وهويّتهم. يقول: "كان هناك مناضلون قدامى مثل سي عبد العزيز الثعالبي... أحداث الجلاّز وأشهر الاضطراب (1911-1912)، وكذلك المبتدئين، الذين، بينما كنا نقاتل من إيبرس⁶¹ إلى فردان⁶²، حصلوا على شهادتهم القانونية على مقاعد كليات الحقوق لدينا"⁶³.

نظر منشكور بعين أخرى إلى أنشطة الثعالبي وأتباعه من الشباب التونسيّ. فلم يتردّد في توجيه التهم إليهم بالعمل مع خصوم فرنسا التاريخيين: الألمان والروس. يقول: "وفي باريس كانت، لنقل، تستحضر عند سي عبد العزيز الثعالبي، علاقات متتابعة بين الشبان التونسيين القوميّين وخدمات الدعاية الألمانية و البولشفية الروسية"⁶⁴.

خاتمة:

(1) استنتاجات في ثلاث نقاط:

أ- مدونة الكتابات الكولونيالية المنشغلة بأطروحة عبد العزيز الثعالبي في الفكر المقاوم معتبرة دقيقة مفصلة غير أنّها متفرقة مشتتة بين مختلف ضروب الكتابات: كتبها وصحفا ورسائل وتقارير مما يجعل أمر الاطلاع عليها غير متاح في كثير من الأحيان.

ب- هناك سعي من جهة الكتابات الكولونيالية إلى الإحاطة بالنسيج الفكري لشخصية الثعالبي النسيج الموّلد لروح المقاومة عنده والكشف عن الروابط الفكرية التي تجمع بينه وبين رواد النهضة العربية في عصره مشرقا ومغربا عربا وغربا واكتشاف مزاياه التي جعلت منه رائد متحرّرا من التبعية للغرب، ومن تقليد الموروث الفكري العربي واجتراره. لكنّ هذا السعي لم يترجم إلى أفعال على أرض الواقع تعترف للشعوب حقوقها وتردّها إليها.

ج- تفتن أصحاب الكتابات الكولونيالية إلى مكنم الأطروحة المقاومة لكلّ وجوه الاستبداد السياسي والاجتماعي والثقافي مثلما نظّر لها الثعالبي غير أنّ القوى الاستعمارية عجزت عن الحيلولة دون سريان أفكاره يومها في النسيج التونسي والمغاربي والعربي والفرنسي والأوروبي والعالمي وتدقّق معين التفكير في الأسس التي تمكّن من إعادة بناء شخصية المسلم خاصة والإنسان عامة.

(2) توصيات في ثلاث نقاط:

أ- ضرورة الاشتغال في نتاج هذه الكتابات في هذا الشأن غزير وخطير في الكشف عن طبيعة الصلات بين الشرق والغرب يومها واستشراف قادمها.

ب- إنجاز قاعدة بيانات تعرض هذه المدّخرات البحثية وظروف إنتاجها والقائمين عليها، هوياتهم وعلاقاتهم ومشاريعهم النظرية والعملية، تقريبا للمعرفة وتوطئتها للمهتمين بها.

ج- الكشف عن المسكوت عنه في الصلة بين المستعربين المنشغلين، مثلا، في مدونات المقاومة العربية والمستعربين المنشغلين، مثلا، بردود أفعال الغرب إزاء مشاريع التحرّر شرقا وغربا. ومن ثمّ بناء تصوّر للمشارك بينهما.

قائمة المصادر والمراجع

*1 العربية:

- 1- الثعالبي، عبد العزيز، روح التحرّر في القرآن، تع: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ط2، ص373. صدر في طبعة أو لى عام 1905، وثانية عزّها حمّاد بالساحلي، عام 1985.
- 2- الخرفي، صالح، الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان .
- 3- ابن عاشور، محمّد الطاهر، أليس الصبح بقريب: التعليم العربيّ الإسلامي: دراسة تاريخيّة وآراء إصلاحيّة، دار سحنون للنشر و التوزيع- تونس، معدار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- مصر، 1427هـ/2006م، ط1.
- 4- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان،، 1998، ط1.
- 5- قرفال، نجاة، الفتوى وسيلة المستعربين لتحقيق مآرب المستعمرين، ضمن كتاب جماعي: دراسات في الفقه والحضارة، سلسلة إسهامات الزيتونيين، عدد 4، 1442هـ/2020م، مجمع الأطرش، صص273-332.
- 6- قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، ترجمة: حفناوي عمّاية وأسماء معلى، المجمع التونسي: بيت الحكمة ودار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1995.
- 7- لورنس، هنري، مسألة فلسطين: المجلّد الثاني: 1922-1947، رسالة مقدّسة للعالم المتمدّن، الكتاب الثالث: 1922-1931: انتداب على فلسطين، ترجمة: بشير السباعي، المركز القوميّ للترجمة(إشراف: جابر عصفور)، مصر، 2009، ط2.

*2 غير العربية:

- 8- Ageron, Charles-Robert, *Histoire de l'Algérie contemporaine : 1830-1954*, T2, Paris, Presses Universitaires de France, 1964 (collect. « Que sais-je ? », n° 400).
- 9- Bendana, Kmar, *Traducteur en Tunisie aux xix^{eme}-xx^{eme} siecles :Le passage d'une condition à une profession*, ISHMN/ Université de La Manouba, (s.d).
- 10- Bessis Juliette, *Maghreb traversé du siècle*, L'hamattan, Paris, 1997.
- 11- Branciard, Michel, *Le Maghreb au cœur des crises*, chronique sociale, Lyon, Dépôt Légal : Octobre, 1994.
- 12- Ettéalbi, Abdelaziz, *L'esprit Libéral du Coran*, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1905, (100)p.
- 13- Julien, Charles-André, *L'Afrique du Nord en marche: nationalismes musulmans et souveraineté française*, Paris, R. Julliard, 1952.
- 14- Louzon, R, *Le F. Saint défenseur du fanatisme*, L'Humanité, 21^e Année, N° 7473, 14 juin, 1924.
- 15- Monchicourt, Charles, *La Tunisie après la guerre : problèmes politiques* / Rodd Balek. 1920-1921, Publication, Comité de l'Afrique française, Paris, 1920-1922.
- 16- Peyraud, L. de, *La Tunisie est perdue, si le régime actuel n'est pas amélioré*, La Petite Tunisie, 48^e année, No 2335, 20-24 Février 1935.

17- Raynaud, Robert, *La Tunisie sans les Français. Le Nationalisme Tunisien. La propagande communiste dans l'Afrique du Nord*, Publications du Comité Algérie-Tunisie-Maroc, 21, rue Cassette, Paris.

18- Thaâlbi, Abdelaziz, *L'Esprit Libéral du Coran*, Dar- al- Gharb- alislami, 2^{ème} éd, Beyrouth , 1985.

19- Thâalbi, Abdelaziz, *La Tunisie martyre : ses revendications*, Paris, Jouve, 1920, 212 p.

20- Thâalbi, Abdelaziz, *La Tunisie martyre : ses revendications*, Beyrouth, Dar al-Gharb al-Islami, 1985, 262 p.

https://www.bibliotheque.nat.tn/BNTK/doc/SYRACUSE/805724/la-tunisie-martyre?_lg=fr-FR

¹ صدر باللسان الفرنسيّ في باريس. ساعده في كتابته تونسيّان هما "المترجم الهادي السبعي والمحمي سيزار بن عطّار". انظر: الثعالبي، عبد العزيز، روح التحرّر في القرآن، تع: حمّادي الساحلي، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، 1985، ط2، ص373. صدر في طبعة أولى عام 1905، وثانية عربيّها حمّادي الساحلي، عام 1985.

- Abdelaziz Ettéalbi, *L'esprit Libéral du Coran*, Ernest Leroux éditeur, Paris, 1905, (100)p.

Abdelaziz Thaâlbi, *L'esprit Libéral du Coran*, Dar- al- Gharb- alislami, 2^{ème} éd, Beyrouth, 1985.

² Thâalbi, Abdelaziz, *La Tunisie martyre : ses revendications*, Paris, Jouve, 1920, 212 p.

Thâalbi, Abdelaziz, *La Tunisie martyre : ses revendications*, Beyrouth, Dar al-Gharb al-Islami, 1985, 262 p.

https://www.bibliotheque.nat.tn/BNTK/doc/SYRACUSE/805724/la-tunisie-martyre?_lg=fr-FR

³ Julien, Charles-André, *L'Afrique du Nord en marche; nationalismes musulmans et souveraineté française*, Paris, R. Julliard, 1952. p. 135.

⁴ ضابط فرنسيّ، ومفكّر وكاتب في خدمة الثورة العماليّة في أوائل القرن. التحق بتونس سنة 1913، واشترك في الحرب العالميّة الأولى...

⁵ Louzon, R, *Le F. Saint défenseur du fanatisme*, L'Humanité, 21^e Année, N° 7473, 14 Juin, 1924, p.1.

⁶ الثعالبي، عبد العزيز، روح التحرّر في القرآن "دار الغرب الإسلامي، ط 1، 1985، ص 23.

⁷ وكان متأثراً بالفكر الاشتراكي. فقد بادر، وهو في تونس، بتأسيس شعبة للحزب الشيوعيّ الفرنسيّ، سمّوها (الحزب الشيوعيّ) وانخرط في هذا الحزب بعض الشبّان التونسيّين...".

انظر: أضواء على الصحافة التونسيّة، الثورة البروليتاريّة (بالفرنسيّة)، العدد 626، أكتوبر 1976، عدد خاصّ ب(لوزون)، وثائق مختلفة. نقلا عن: الخرفي، صالح، الثعالبي، من آثاره

وأخباره في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ص141 (الهامش 14).

⁸ الخرفي، صالح، الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، م. س، صص 141-142.

⁹Monchicourt, Charles, *La Tunisie après la guerre : problèmes politiques* / Rodd Balek. 1920-1921, Publication, Comité de l'Afrique française, Paris, 1920-1922, p. 87,

¹⁰ Bendana, Kmar, *Traducteur en Tunisie aux xix^{eme}-xx^{eme} siècles : Le passage d'une condition à une profession*, ISHMN/ Université de La Manouba, (s.d), p. 9.

¹¹ Branciard, Michel, *Le Maghreb au cœur des crises*, chronique sociale, Lyon, Dépôt Légal : Octobre, 1994, p. 37.

¹² Branciard, Michel, *Le Maghreb au cœur des crises*, op. cit, p. 37.

¹³ سجّلنا اختلافا في عنوان هذا الكتاب نردّه إلى اختلاف في ترجمته. فالمستعرب البريطاني أرنولد قرين () يطلق عليه: الروح الحرة في القرآن". انظر: قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، ترجمة: حفناوي عمايرية وأسماء معلى، المجمع التونسي: بيت الحكمة ودار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، 1995، ص 249.

¹⁴ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 249.

¹⁵ انظر: ابن عاشور، محمد الطاهر، أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي: دراسة تاريخية وآراء إصلاحية، دار سحنون للنشر والتوزيع- تونس، معدار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- مصر، 1427هـ/2006م، ط1، صص 99-101 / صص 198-201.

¹⁶ لهذا الكتاب قيمة توثيقية دفعت بنخبة من الأساتذة التونسيين لترجمته عام 1953 بمحتشد تطاوين، ونشر في 1396هـ/1976. عنوانه الأصلي:

L'Afrique du Nord en marche; nationalismes musulmans et souveraineté française. op. cit,

¹⁷Julien, Charles-André, *L'Afrique du Nord en marche*, op. cit, p. 26.

¹⁸ Julien, *L'Afrique du Nord en marche*, op. cit, p. 88.

¹⁹Ageron, Charles-Robert, *Histoire de l'Algérie contemporaine : 1830-1954*, T2, Paris, Presses Universitaires de France, 1964 (collect. « Que sais-je ? », n° 400). P. 288.

²⁰ Peyraud, L. de, *La Tunisie est perdue, si le régime actuel n'est pas amélioré*, La Petite Tunisie, 48^e année, No 2335, 20-24 Fevrier 1935, p. 1.

²¹ انظر: أضواء على الصحافة التونسية، الثورة البروليتاريّة (بالفرنسيّة)، العدد 626، أكتوبر 1976، عدد خاصّ ب(لوزون)، وثائق مختلفة. نقلا عن: الخرفي، صالح، الثعالبي، من آثاره وأخباره في المشرق والمغرب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان ص 142 (الهامش 14).

²² الرئيس الأمريكي وودرو ويلسون (Woodrow Wilson) (1856-1924).

²³ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 247.

²⁴ م. ن، ص 84.

²⁵ رغم أن فرنسا كانت تتوجّس خيفة من تحرّك زعماء الفكر الإصلاحيّ العربيّ. يقول المؤرّخ الجزائريّ سعد الله: "أثارت الصحافة الفرنسيّة ضجةً حول زيارة ابن باديس لتونس سنة 1937، واتّفاق الزعيمين (ابن باديس والثعالبي)، حسب هذه الصحافة، على توحيد حركات المغرب العربيّ" (25). انظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافيّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت- لبنان، 1998، ط 1، ج 5، ص 600.

²⁶ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 248.

²⁷ La Dépêche Tunisienne

²⁸ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 248.

29 لم تخل مؤسسة الإفتاء من توظيف استعماريّ. فقد استفتى المقيم العامّ في تونس فرنسوا منسرون (Manceron, François) (1872-1937)، بمساعدة المستعرب الفرنسيّ ليون برشي (Bercher, Léon) (1889-1955)، صاحب الترجمات في آثار من الفقه الإسلاميّ، استفتى شيخ الإسلام في إباحة التجنيس. للاطلاع على نماذج إجرائيّة، انظر: قرفال، الفتوى وسيلة المستعربين لتحقيق مآرب المستعمرين، ضمن كتاب جماعيّ: دراسات في الفقه والحضارة، سلسلة إسهامات الزيتونيّين، عدد 4، 1442هـ/2020م، مجمع الأطرش، ص 383 وما يليها.

30 قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 236.

31 قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 247.

32 م. ن، ص. ن.

33 "... فطلب الثعالبي حماية من الإدارة التونسيّة وقد رفض السيّد قبيو (Guyot) مدير المصلحة القضائيّة لمحكمة الدريّة (اسم لفرع المحكمة المدنيّة بالعاصمة. تمّ بعث المحاكم المدنيّة بالإيالة التونسيّة عام 1896 مقابلا للمحكمة الشرعيّة) تسليم المتهم للمحكمة الشرعيّة وقال إنّ المحكمة المذكورة ليست مخوّلة للنظر في مثل هذه القضية... وبعد التفاوض حكمت عليه بشهرين سجنا". قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 248.

34 "بعد سنة من إطلاق سراحه اشترك الثعالبي مع سيزار بن عطّار (محاميّه) والهادي السبعي (أحد المترجمين في محاكمته في تأليف كتاب باللغة الفرنسيّة بعنوان الروح الحرة في القرآن) (باريس 1905)". انظر: قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، صص 248-249.

35 قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 249.

³⁶ Bessis Juliette, *Maghreb traversé du siècle*, L'hamattan, Paris, 1997, p. 11.

³⁷Monchicourt, *La Tunisie après la guerre*, op.cit, pp. 226-227.

³⁸تعرف بالمذهب الولسوني أو المثاليّة الولسونيّة (Idéalisme wilsonien)، ويلسون (Woodrow)، حول فكرة السلام العالميّ في خطابه (8 جانفي 1918)، ثمّ كتابه أربع عشرة نقطة³⁸، حقّ الشعوب في حرّيّة تقرير المصير، لقي طرحه هذا انتقادات كثيرة.

³⁹Bulletin de la Société des professeurs d'histoire et de géographie de l'enseignement public, *Association des professeurs d'histoire et de géographie (France)*, 1927-11-01, No. 53, A. 18^e, 1^{er} Novembre, 1927, p. 67.

⁴⁰حسن القلاطي: مفكّر سياسيّ إصلاحيّ ومحامٍ تونسيّ من أصل جزائريّ (1880-1966)

⁴¹أحمد الصافي: مفكّر سياسيّ إصلاحيّ ومحامٍ تونسيّ (1882-1935)، أمين عامّ الحزب الحرّ الدستوريّ 1920 الذي أسّسه عبد العزيز الثعالبي قبل غيابه عن تونس 14 عاما.

⁴²فرحات حشّاد (1914-1952) صاحب مسيرة نقابيّة من 1944 إلى 1952.

⁴³Bulletin de la Société des professeurs, *Association des professeurs d'histoire et de géographie (France)*, op. cit, p. 67.

⁴⁴احتذاء بتركيا الفتاة (ثورة 1908-1909)

⁴⁵قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 280.

⁴⁶يقصد روبرارينو (Robert Raynaud) مؤلّف تونس من دون الفرنسيين، والقوميّة التونسيّة، والدعاية الاشتراكيّة في شمال إفريقيا:

Raynaud, Robert, *La Tunisie sans les Français. Le Nationalisme Tunisien. La propagandecommuniste dans l'Afrique duNord*, Publications du Comité Algérie-Tunisie-Maroc, 21,rue Cassette, Paris.

⁴⁷Bulletin de la Société des professeurs, *Association des professeurs d'histoire et de géographie (France)*, op. cit, p. 67.

⁴⁸ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 249.

(Marcel Cachin) (1869-1958)⁴⁹ سياسي فرنسي مدير جريدة الإنسانية (*L'Humanité*) من 1918 إلى وفاته.

⁵⁰ الثعالبي، تونس الشهيدة، م. س، ص 16.

⁵¹ Louzon, R, *Le Le F. Saint défenseur du fanatisme*, L'Humanité, 21^e Année, N° 7473, 14 Juin, 1924, p.1.

⁵² Louzon, R, *Le Le F. Saint défenseur du fanatisme*, op. cit, p.1.

⁵³ قرين، أرنولد هـ، العلماء التونسيون (1873-1915)، م. س، ص 249.

⁵⁴ تقاطع تاريخ انعقاده مع حدث نُجِّلَه أُمَّة الإسلام. فقد تزامن مع ذكرى الإسراء فكان الربط بين المسجد الحرام بمكة المكرمة، والمسجد الأقصى بمدينة القدس. انظر: لورنس، هنري، مسألة فلسطين: المجلد الثاني: 1922-1947، رسالة مقدسة للعالم المتمدّن، الكتاب الثالث: 1922-1931: انتداب على فلسطين، ترجمة: بشير السباعي، المركز القومي للترجمة (إشراف: جابر عصفور)، مصر، 2009، ط 2، ص 275.

⁵⁵ لورنس، المجلد الثاني: مسألة فلسطين، م. س، ص 273.

⁵⁶ Raynaud, Robert, *La Tunisie sans les Français*. Op. cit.

⁵⁷ Bulletin de la Société des professeurs, *Association des professeurs d'histoire et de géographie (France)*, op. cit, p. 67.

⁵⁸ Raynaud, Robert, *La Tunisie sans les Français*, pp. 8 et suiv.

⁵⁹ Bulletin de la Société des professeurs, *Association des professeurs d'histoire et de géographie (France)*, op. cit, p. 67.

⁶⁰ Idem.

⁶¹ (Ypres): مدينة في بلجيكا.

⁶² (Verdun): مقاطعة في فرنسا.

⁶³ Monchicourt, *La Tunisie après la guerre*, op.cit, p. 56.

⁶⁴ Ibid, p. 68.